

آخر الزمان: قراءة في نهاية العالم عند روني غينون

The End of the World: A Reading at the End of the World by Rene Guenon

La fin du monde: une lecture de la fin du monde chez René Guenon

نسيمة حياهم¹

تاريخ النشر: 2020/07/01

تاريخ القبول: 2019/12/28

تاريخ الإرسال: 2019/03/31

ملخص: يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على مسألة "نهاية العالم"، وفق رؤية "روني غينون"¹ Ronnie Guenon الذي بين دلالة هذه النهاية والعلامات أو الأشارات التي تسبقها، مركزا على "الأزمة" التي تعدّ مفهوما مركزيا في تحليله، وإعطاء رأيه في مستقبل البشرية الراهن أهو نحو الخير والشر. فإذا كان نحو الشر فهل هناك إمكانية لتجنب مثل هذه النهاية؟. وتعدّ هذه الرؤية محاولة لإعادة بعث النظرة التراثية الهندوسية ونقد نظرة الإنسان الحديث للزمن والتاريخ المشبعة بالمعقولية المعتقدة منذ القرن الثامن عشر بالتفاؤل أو التقدم، غير أن الأحداث الأخيرة تنفي ذلك لكونها علامات تحيلنا إلى التشاؤم. إن الحديث عن نهاية العالم لا يزال حديثا يجذب عديد الباحثين فمن هذا المنطلق تظهر أهمية هذا الموضوع بالإضافة لكونه ذو قيمة معرفية كبيرة (تأملية)، إلى جانب تقديم توصيات تسعى إلى ضبط الممارسة الإنسانية كي تكون مساهمات في خدمة الصيرورة الحسنة للعالم وليس زواله السريع.

الكلمات الدالة: روني غينون، نهاية العالم، العقائد الدينية، التفاؤل، التشاؤم.

Résumé:

Cet article vise à éclairer la question de la "fin du monde", selon la vision de Ronnie Guenon, qui indique la fin et les signes qui la précèdent, en se concentrant sur la "crise" comme concept central de son analyse. Il donne son opinion sur l'avenir de l'être humain en tant que bien ou mal, mais pour le mal, existe-t-il une possibilité d'éviter une telle fin?

Cette vision est une tentative de redynamiser la vision du patrimoine hindou et critiquer la vision humaine moderne de l'époque et de l'histoire qui est pleine de raison et qui, depuis le XVIIIe siècle, est perçue avec optimisme ou progrès, bien que les événements récents le nient parce qu'ils sont des signes de pessimisme. En outre, le thème de la fin du monde intéresse toujours de nombreux spécialistes, qui ont également une grande valeur cognitive, ainsi que des recommandations visant à contrôler les pratiques humaines de manière à contribuer au bon déroulement du monde plutôt qu'à sa disparition rapide

Mots clés:

Ronnie Guenon, Fin du monde, croyances religieuses, signes, optimisme, pessimisme.

Abstract:

This article aims to shed light on the question of the "end of the world," according to the vision of Ronnie Guenon which identifies the signs that precede that end focusing on the "crisis," as a central concept in his analysis. He gives his opinion of the future of human being as good or evil. But, as far as evil is concerned, is there any possibility of avoiding such an end?

This vision is an attempt to re-energize the Hindu heritage view and criticize the modern view of the present and the history that is full of reasons, and which, since the eighteenth century, has been viewed with optimism or progress, although, recent events deny that due to signs of pessimism. Besides, the question of the end of the world is still subject to debate by many scholars.

*المؤلف المراسل

¹ Hayahem nassima, Mohamed Lamine Debaghine Setif 2 University, laboratory of contemporary Algerian society : Algeria, hayahemnassi@gmail.com .

The importance of this subject, is of great cognitive value, in addition to making recommendations that seek to control human practice so as to contribute to the good process of the world rather than its quick disappearance.

Key words:

Ronnie Guenon, End of the world, religious beliefs, signs, optimism, pessimism.

مقدمة

يعتبر سؤال العالم بمثابة القضية الفلسفية التي شغلت تفكير العديد من الفلاسفة، حيث كانت لهم مواقف متنوعة ومتعددة ومتباينة. وها هو الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط نجده في ذات السياق يقول: "إنّ العالم خبيث ولا يطمأنّ إليه هي شكوى قديمة (...). تجعل العالم يبدأ بالخير وبالعصر الذهبي والحياة في الفردوس، أو بحياة أكثر سعادة، صعبة جماعة من الكائنات السماوية، إلا أنّها سرعان ما تتبدد هذه السعادة" (كانط، 2001، ص 64)، هكذا كانت رؤية كانط الفلسفية حول جملة الرؤى المتفائلة التي تجعل الخير كامن في البدايات ثم يتناقص رويدا مع استمرار الزمان لينتهي في النهاية لا محالة، في سياق تنبؤه بالخير والتّقدم مع بزوغ فجر عصر الأنوار، ولكن بمجرد أفول شمسه أخذت تلك الرؤى في ولوج باب الخطأ، خاصة مع تأزم الأوضاع وحدوث الأزمات العالمية من حروب وأمراض ومجاعات وازدياد بؤر الصراع، وفي ظل هذه الأجواء المضطربة صدرت المؤلفات التي تنبأ بأن الأحداث الراهنة فآل سيئ وطالع تعيس للبشرية من بينها كتاب غينون (la règne de la quantité et les signes des temps)، الذي ظهر أول مرة سنة "1945" حيث تطرق فيه إلى مشكلة نهاية العالم، وكذا الأشرار التي تؤذن بقرعها، محاولا تقديم رؤية استشرافية للمستقبل على ضوء التّراث، ومن ثم يعلن رأيه حول "مشكلة العالم"، فكيف نظر روني غينون للعالم؟ وهل كانت محددات السيورة التاريخية عنده تؤول إلى النهاية والزوال، أم أنّها تقف عند محطات التراجع وإعادة البناء؟ ومن ثم إن كان اعتبرها غينون حقا نهاية، فهل هذه النهاية يمكن اعتبارها بمثابة رؤية تشاؤمية تجاه العالم، أم أنّها حتمية سننية لا مفر منها تؤكد الرؤية القائلة بأن مصير البشرية زوال؟ وهل هي نهاية يمكن تجنبها أم أنّها حتمية تاريخ وقدر؟.

هذه الأسئلة وأخرى سنسعى من خلالها إلى معالجة موضوع "رؤية نحو عالم" ونهايته من عدمها وفقا للرؤية الغينونية (Guenonisme)، في إطار التاريخ الدائري هذا من جهة، وفي ضوء الرؤية الأصلية المبنية في عمق التراث الكلاسيكية التي تتمتع بكثرة رموزها وبنيتها المتفردة من جهة ثانية، بغية الوصول إلى حل ملائم يلامس قلق الإنسان المعاصر من المستقبل والنهاية والمجهول، نتيجة انفصال عروته الوثقى بالعقائد والموروثات التي تبعث على الطمأنينة وراحة النفس الإنسانية، وعليه تكون البداية بتحديد دلالة نهاية العالم، يلي ذلك بحث هذه النهاية في العقائد الدينية من جهة وفي النظرية التراثية الهندوسية التي يختارها روني غينون كمثال من جهة ثانية، مروراً بالحديث عن الأشرار

التي تسبق هذه النهاية، لنصل إلى الحديث عنها بين التفاؤل الطوبوي والتشاؤم المساوي، ونختتم بخلاصة تحدد نتيجة البحث وتوصياته.

1_ نهاية العالم ومضامينها الدلالية: "رؤية فلسفية حول سؤال العالم"

يعتبر مفهوم "نهاية العالم" مفهوماً مركزياً في العقائد الدينية خاصة من وجهة نظر زمنية، وذلك باعتبار ما تدعوا إليه الأديان هو الخير بكل صوره وأشكاله واجتناب الشر والفساد الذي يضر الإنسان والعالم عن طريق التشريع، ومن ثم يتحدد مصير الإنسان في العالم الآخر بعد الموت إما في الجنة أو في النار تبعاً للالتزام بالتشريع الإلهي أو عصيانه من جهة أولى، وأيضاً يتحدد مصير العالم هو الآخر، فالالتزام بذلك التشريع يساهم في ضمان استقرار العالم وسيره الحسن وفق قوانين إلهية وعدم الالتزام يعجل بالنهاية والغضب الإلهي. هكذا يكتسي مفهوم "نهاية العالم" صبغة "إسكاتولوجية" Eschatologie أو أخروية فهو الكلام في الأخرويات (لاند، 2001، ص 361)، حيث يدلّ على "انتهيار شامل يكون وإيدانا بمرحلة جديدة يسميها الكتاب الكريم "بالآخرة" كما يسمي هذا الانتهيار "بالقيامة" (بلكا، 2008، ص 288). ويبيّن من هذا التعريف أن النهاية قد تكون زمنية أو مكانية، ولكن هذا لا ينفي كونها زمنية ومكانية في نفس الوقت، كما ذهب إلى ذلك الأديان، وإذا قلنا الدين عند غينون فالمقصود عادة الأديان السماوية الثلاثة لاحتوائها على ثلاثة عناصر رئيسية ضرورية في تعريف الدين ألا وهي: "المعتقد، العبادة، الأخلاق" (Guenon, 1958, p. 47)، لذلك يستثني الديانات التي لا تحتوي هذه العناصر بقوله: "نستطيع أن نفهم الآن لماذا نقول إنه من الصعب أن نطبق بصرامة مصطلح الديانة خارج المجموعة المشكلة من اليهودية والمسيحية والإسلام" (Guenon, 1958, p. 48) أما نهاية العالم عنده فتعني انتهاء دورة زمنية كبرى، حيث لا يبقى للبشرية الراهنة أي وجود إيماناً منه بنظرية الدورات الهندوسية التي سيأتي ذكرها، كما تكتسي هذه الدلالة بعداً دينياً وتخللها نزعة عاطفية مقتبسة من الأديان الثلاثة.

ولنهاية العالم دلالات أخرى خارج نطاق الدين، بل يمكن القول أن هناك نهايات سيطرت على الفكر الفلسفي المعاصر وأصبحت هاجساً يورق الباحثين والفلاسفة على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر بعض الأمثلة كـ: "نهاية التاريخ عند هيجل وفوكوياما، نهاية الميتافيزيقا عند نيتشه وهایدغر، نهاية الإنسان عند فوكو، وغيرها من الأطروحات التي تعبر عن التحول من وضع لآخر، أو من أفكار لأخرى، أو من حقبة زمنية معينة إلى حقبة جديدة، أو موت أفكار وميلاد أفكار جديدة، بيد أن نهاية العالم في معناها العام تعني دماره وخرابه أو فناؤه مهما كانت الطريقة أو السبب.

2- دمار العالم في الأديان (Destruction du monde dans les religions)

إذا تعمّن الناظر في المعتقدات الدينية وحتى الفلسفية تراءت له تصورات كليّة عن العالم بداية واستمرارية ونهاية وفناء، وعن الزمن والمكان والإنسان ومصيره، هذه التصورات محملة بالأساطير والحكايات وتكتسي حلّة رمزية ممزوجة بالخيال منقطع النظر، والبداية المعروفة والمخترة في أغلب البحوث هي الواردة في "سفر التكوين" كالتالي: "في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض بلا معالم وخرية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وقوة الله الفعالة تروح وتجيء على وجه المياه" (التكوين، 1995، ص7) هذه البداية وردت في سفر "يوحنا" بصيغة مغايرة وهي: "في البدء كانت الكلمة" (يوحنا، 1993، ص1576) ولقد أيّد غينون هذه البداية حيث يوافق الرأي السالف الذكر، وهو ما نلتهمسه من خلال قوله بأن: "اللوجوس (logos) هي في الآن الواحد فكرة وقول، والكلمة الإلهية من حيث هي، إنما هي الإرادة الإلهية المتوجهة على حضرة الممكنات، وبالنسبة إلينا فهي تتجلى وتعبّر عن ذاتها من خلال الخلق... فالخلق منفعل عن الكلمة" (غينون، 2014، ص16)، فالله إذا أراد شيئاً من الخلق أو الفعل يكتفي بالكلمة فقط حسبه وكما هو شائع في الفلسفة الإشراقية فإنّ الله هو المبدأ الأول الذي يكتفي بالقول ففعله يكمن في توجيه الأمر للعقل الفعّال.

ولما كانت العقائد الدينية تتفق مبدئياً على خلق الله للكون وإيجاده للعالم قبل أن يكون موجوداً من عدم وأنّ عالم المادة ليس هو العالم الوحيد لكونه مسبوق بعالم آخر هو "عالم الأمر، عالم القدس والطهارة، ويسمى بالأمر لكونه لا يحتاج في وجوده لأزيد من كلمة كن" (الطبطبائي، 2007، ص23)، كذلك فإنّ نظرهما لنهاية العالم متشابهة حيث للعالم حتماً نهاية ولا يمكن أن يدوم إلى الأبد، وإذا كان "حدث الخلق بذاته يزخر بالرمز الذي ينطوي على حس ميتافيزيقي وآخر واقعي" (الباش، 1988، ص103)، فإنّ حدث النهاية محمل أيضاً بالرموز والدلالات، هذه النهاية التي تسبقها أمارات، أشارت إليها أغلب النصوص الدينية فهي غير مفاجئة أو لحظية حيث تتطور مجموعة أحداثاً وتصعيدات تنذر بالخاتمة .

تحدث المسيحيون عن نهاية كل شيء وقد ورد في الإنجيل أن نهاية العالم تسبقها أمارات منها: المجاعة والأمراض، والبلايا، والهرج، تليها سبعة أيام تتحقق فيها الأمارات الكبرى، إذ تصدر أصوات من السماء، ورعب ودخان، وزلازل وتلاشي الشمس، وحلول الظلام، ثم في اليوم الثامن يتحقق دمار العالم بعد رفع النخبة الحيرة والمؤمنة (الأنجيل، 2008، ص ص189-192). نفس الأمر متواتر بصيغة أخرى في العقيدة الإسلامية، التي تتحدث هي أيضاً عن دمار العالم وخرابه نتيجة الفساد الذي يحصل في الأرض، ولقد عبّر الشيرازي (1050-1572) عن هذه الحقيقة بقوله: "في الكتاب الإلهي آيات كثيرة دالة على دثور العالم وخرابه واضمحلال وجوده مع بقاء صوره العلمية عند

الله القديم حسب ما رآه الكبراء والحكماء وأساطينهم الأقدمون" (الشيرازي، ص 87)، وعليه فالعقائد الدينية تؤكد أن نهاية العالم قادمة مهما طال الزمن أو قصر، وتسيطر عليها مفاهيم الخير والشر والخلود.

هناك رؤى أخرى تتحدث عن دمار العالم أقدم بكثير من رؤية العقائد الدينية التوحيدية، لا يتسع المقام لذكرها كلها لذلك نقصر على شرح النظرية الهندوسية التي تبناها غينون، وبنا عليها نظرتة لمجمل التاريخ البشري، هذا التبنّي والارتكاز عليها دون غيرها له ما يبرره، فهو ليس محض إعجاب بقدر ما هو إيمان عميق منه بأهمية هذه الرؤية التراثية للعالم، وكذا لتقريب الفهم للغرب المعاصر الذي يجهل هذه النظريات وربما يسيء فهمها، لقد أشار غينون عديد المرات في مؤلفاته سبب اعتماده على التراث الهندي منها قوله: "اختيار الاعتماد على مذهب معين لا يعدو أن يكون مسألة كونه الأنسب للعقلية المتوجه إليه، وأليق بالأوضاع الأحسن ملائمة ولا يفسر شيئا في المبادئ ذاتها" (غينون، 2016، ص 199). حينها فالأمر على وجه التحديد لا يعدو إلاّ كونه الأكثر مناسبة واقتدارا على تقريب الفهم وتجنب كل سوء محتمل.

إنّ عقيدة الدورات الهندوسية وتفسيراتها حول نهاية العالم وصف دقيق للمدد الزمنية بالأرقام من جهة أولى، وإشارة إلى وجود زمنين أحدهما متعالٍ والآخر أرضي، لقد ورد في "الباجافاد جيتا" Bhagavad Gita الكتاب الهندي المقدس ما يلي: "أولئك الذين يعرفون أن يوم من أيام براهما يمتدّ لآلاف الأجيال وليله لآلاف الأجيال فهم الرجال الذين يعرفون الليل والنهار" (الباجافادجيتا، 1993، ص 79). ومن البديهي أن يترتب عن القول بالدورات الزمنية قول بالبداءة والنهاية المستمرين للعالم كما يري ميرسيا إلياد (1986_1907 Eliade Mircea) لأنّ العالم لا بد له من أن يؤوّل إلى الفساد حكما لمجرد كونه موجودا ولا بد بالتالي من إعادة توليده دوريا أي خلقه من جديد فنهاية العالم إذا أمر ضروري لكي يصير ممكنا حدوث خلق جديد" (إلياد، 2007، ص 216). ومتى كان الأمر كذلك لزم -في تقدير الشعوب القديمة- أن يكون الانتقال إلى عالم جديد يمر عبر نهاية محتومة ومفزعة، تعد فاصلا بين العالم القديم الذي مسته الخطايا والأكدار والتوترات، والعالم الجديد النقي والصافي أو الفطري، هذه الرؤى تعبر عن الحنين البشري للزمن الأول أو "زمن البدايات" كما يسميه ميرسيا إلياد لذلك، "إن الرجاء بولادة ثانية في حياة جديدة والتطلّع نحو المستقبل ليس فقط أفضل وإنما ملؤه الغبطة والسرور" (إلياد، 2007، ص 203)، وهو ما تتطلّع إليه البشرية دون شك.

والصورة الإجمالية لنظرية الدورات الزمنية في العقيدة الهندوسية و لنهاية العالم تتجلى فيما يلي: "أطول دورة ملحوظة هي الـ"بارا"، Para أو حياة براهما التي تدوم مئة سنة براهمية، وتنتهي بانحلال كوني، كل يوم من سنة كهذه يسمى "كالبا"، ويمثل دورا من عالم منذ خلقه حتى نهايته، وكل كالبا (أو يوم من أيام براهما) ينقسم إلى 14 "مانفنتارا" Manvantara أو (عهد مانو)، هذا المانو هو العقل الكوني الذي يشكل الـ"ذرما" الناموس الذي يحكم العهد المشار

إليه، وتنقسم كل مانفتارا إلى 77 "مهايوغا" وكل "مهايوغا" إلى أربع، ذوات ديمومة متناقصة على إيقاع 4،3،2،1" (بنوا، 1998، ص72)، ووفقا لهذا الوصف فإن حياة براهما هي مجمل الوجود، مكون من أيام كل يوم يعدّ علما يبدأ من الصباح ليغرب ليلا، مع العلم أنه تتخلله أربعة عشر دورة زمنية ، هذه الأخيرة فيها مهايوغات كل منها تتناقص بانتظام إلى أن ينتهي العهد. وتبدو هذه الرؤية في نظر غينون صحيحة كل الصحة، إذ أكدّ أننا في العهد الرابع المسمى "كالي يوغا" باعتبار "المانفانتارا" تنقسم إلى أربعة عهود (الذهبي، الفضي، البرونزي، الحديدي)، هذا الأخير الذي بدأ منذ حوالي ستة آلاف سنة ولازال إلى يومنا هذا، أي أن بداياته تعود إلى أبعد من العصر الكلاسيكي. (غينون، 2017، ص11) بهذا التقدير اتضح لغينون أنّ القول بالتقدم بدءًا من العصر الحديث لا توافقه العلوم التراثية بل تنفيه، ولا يشبهه استشراف مستقبلي متين، خاصة مع تكثرّ الأزمات بل "نحن في لحظة حرجة لمغامرة جريئة بدأت منذ قرابة ثمانية آلاف سنة، مليئة بالقساوة، العظمة، كوارث الاستعباد والتحرر والتي تمسّ اليوم ستة ملايين من البشر، وكيف لا نشعر بداخل هذه الأزمة أنّ هناك اشتداد في الصراع بين قوى الموت وقوى الحياة" (Morin, 2011, p. 27). هكذا عبر إدغار موران عن عمق الأزمة مقاربا بذلك التاريخ الذي بدأت منه بالتاريخ الذي قدمه غينون، وكأنه وعي كوني بالأزمة واشتدادها.

لقد أولى غينون الدورة الراهنة أهمية كبرى في بحوثه، هذه الأهمية حسبه نابعة من كونها دورة تامة كبرى "مانفتارا" توشك على الأفول حيث قال: " الدورة التي نعتبرها هنا لها بلا مرأ أهمية ذات مدى أعظم من كثير من الدورات الأخرى لأنها نهاية دورة كبرى (مانفتارا) أي الوجود الزمني لما يمكن تسميته تحديدا ب "البشرية" (غينون، 2013، ص288)، ولو انتهت لن يعود بالإمكان رجوعها إلّا بعد مرور ملايين السنين وفقا لنظرية الدورات، هذا من جهة. ومن جهة أخرى يعود اهتمامه بالعصر الراهن أكثر من غيره لأنه "العهد المظلم" كما أشار في كتابه "أزمة العالم الحديث" الذي لم تشهد البشرية مثله قط فهي فرصة مواتية لإعطاء نظرة كليّة وتقديم قراءة جامعة وكونية لا ينبغي إضاعتها.

3- أشراف نهاية العالم وأفوله وأفوله (Signes de la fin du monde et de son déclin)

لعلّ ما يميز قراءة غينون للتاريخ البشري عموما ولنهاية العالم خصوصا، هو نزوعها الدائم نحو استخراج مكنونات التراثيات القديمة وحتى بعث المنسية منها، بالإضافة إلى محاولة التوقف عند المحطات الحاسمة لمجمل الرؤية نحو العالم والتاريخ الأرضي، مستخدما منظاره النقدي تارة والرصدي تارة أخرى لتقديم رؤية كلية، تفتح زاوية نظر وأفق تفكير جديد في فلسفة التاريخ، إذ هناك فرق شاسع بين القراءات التي توظّف فكرة نهاية العالم لغرض إيديولوجي (أطروحة فوكوياما)، وقراءة مضادة توظّف نفس الفكرة لكن لغرض إيبستيمولوجي وأنطولوجي في الوقت نفسه (قراءة غينون).

من هنا اشتغل غينون برصد الأمارات الواقعة والتي ستقع في العهد القريب لو استمرت الأوضاع على ما هي عليه، وتؤذن بنهاية مأساوية للعالم المعاصر، وأهمها ما يلي:

أ- شيوع الكم (Communité quantique):

إن أول العلامات التي تشير إلى نهاية العالم هيمنة الكم، هذه الهيمنة أو الشيوع امتدّ إلى جميع المجالات فصار ميزة العصر، ففي بداية كل دورة زمنية تكون البشرية قريبة من كيف لكن الوضع لا يستمرّ على هذه الحالة حيث يبدأ الانحدار نحو الكم والمادة، وهذا الأمر لا يدعو للغربة في نظره لكونه قانونا عاما من قوانين الدورات الزمنية، التي تقتضي الابتعاد عن المبدأ الأعلى أو كيف نحو المبدأ الأسفل أو الكم، وفي أحيان كثيرة يتعداه إلى نسيان كيف نأثيا كما هو ملحوظ في الحضارة الغربية المعاصرة. (غينون، 2013، ص ص 2-25) وشيوع الكم أدى إلى بعض النتائج.

أولا: وجود نسخ مكررة عن كل شيء حيث ينتفي كيف، ومن ثمّ ينصب الاهتمام على العدد أي أنّ: "إمكانية وجود التماثل المطرد يفترض كائنات خالية من كل نعت كيفي، فلم تعد سوى وحدات عددية مجردة، ومثل هذا التماثل لا يمكن تحقيقه بالفعل أبدا غير أن المجهودات المبذولة لتحقيقه خصوصا في المجال الإنساني لا يمكن أن تعطي من نتيجة سوى تجريد الكائنات من أوصافها المميزة" (غينون، 2013، ص 65) وهو ما يطلق عليه مصطلح التنميط حيث يتم إخضاع كل شيء إنساني وغير إنساني لنفس النمط للوصول إلى "إنتاج أكبر كمية ممكنة من الأشياء في منتهى التماثل فيما بينها ليستهلكها بشر يفترض أنهم كذلك كلهم متمثلون" (غينون، 2013، ص 73).

ثانيا: الاهتمام البالغ بالكم والانحصار فيه أدى إلى سيطرت المادية ونفي كل المعارف الميتافيزيقية بنفي الملكات فوق-الفردية وروحنة العقل والحواس كوسائل للمعرفة من هنا ينتقد غينون العقلانية وكل ما ارتبط بها لأن العقل حينها يفقد صلته بمبدأه المتعالي عن الفردية ويُسمي أعمي وينكب نحو القطب السفلي للوجود وينغمس في المادية (غينون، 2013، ص 110)، هذه الأخيرة التي تعدّ من السمات البارزة للعصر الحديث بل هي لبّها، كما أنّها من مظاهر نهاية العالم، صحيح لا أحد ينكر قيمة العقل وأهميته لكن ما يعيبه غينون هو الإقصاء المشروع لما هو أفضل منه لأن "العقل المفكر ملكة مخصوصة بالإنسان حصريا أما ما فوق العقل المفكر فهو حقا فوق المرتبة البشرية المعتادة وهذا هو الذي يتيح التحقّق بالمعرفة الميتافيزيقية" (غينون، 2018، ص 13) حينها فالعلم يرتبط بالعالم المادي الكمي ولا يتجاوزه.

ينتقل غينون بعد أن حدد نتائج هيمنة الكم، إلى ذكر أهم مرحلتين يمرّ بهما العالم قبل أن ينتهي، الأولى يسميها "مرحلة التصلّب"، والثانية يطلق عليها باسم: "مرحلة التلاشي"، وهما مرحلتين متلازمتين لأنّ "التوجهات نحو التصلّب ونحو التلاشي رغم تناقضهما ظاهريا من بعض الوجوه تتشاركان معا بمقتضى وقوع فعلهما في آن واحد للوصول في الختام إلى الكارثة النهائية" (غينون، 2013، ص 137). أما عن المرحلة الأولى "التصلّب" فإنّ الانغماس في الكم

يوصل إلى المادية الصماء أو الصلبة، هذا يستلزم انكفاء العالم على ذاته وانغلاقه من أعلى حسب غينون فلا يتم الاتصال مع المبادئ العليا ومع العوالم الروحية المتعالية، مع أن الوضعية السوية تستلزم بقاءه مفتوحا كما يتم ذلك الاتصال وبذلك نجد "الانحصار في الحواس يمنع كل فرصة لمعاينة أي تدخل واضح لعناصر غيبية (فوق حسية) في العالم الحسي نفسه، وهكذا يتحقق بأقصى قدر ممكن بالنسبة إليه انغلاق هذا العالم الذي أمسى أشد صلابة بمقدار انعزاله عن كل نمط آخر من الواقع" (غينون، 2013، ص133)، وتزايد سرعة السقوط نحو الأسفل أكثر فأكثر، مما يحدث تصدعات وشقوق في القشرة السفلية للعالم، ومن هذه الشقوق يتسرب الخطر أو القوى الظلمانية (مثل يأجوج ومأجوج في التراث الإسلامي)، وعن هذه الرمزية الغنية بالدلالات يتحدث غينون قائلا: "تكلمنا عن الشقوق (أو التصدعات) التي منها تلج بعض القوى المدمرة، وسيتفقم ولوجها أكثر فأكثر، وتبعا للرمزية التراثية فإن هاته التصدعات تقع في السور الكبير المحيط بالعالم والذي يحميه ضد هجومات الفعاليات الشريرة للميدان الخفي اللطيف الأسفل" (غينون، 2013، ص191). وبذلك يصبح العالم بعيداً عن أية حماية ممكنة من أي خطر ممكن مما يجعل العالم دوماً آيلاً للزوال والفناء، في حين المرحلة الثانية التي تعقب مرحلة "التصلب" والتي تسمى "التلاشي" حيث بعد تجاوز الصلابة العظمى يتجه العالم نحو التلاشي، والتحول من التصلب إلى التلاشي يمكن اختزاله بلغة رياضية كالتالي: إن اختزال كل شيء في الكم والوحدات العددية هو ما يسمى تصلب ثم إن إرجاع الكم المتصل إلى الكم المنفصل أو المتقطع يسمى التلاشي حيث يتفسخ وينحل العالم المادي في نوع من الهباء، فلا يفوت المتعمّن ما في هذه الصورة من وصف دقيق لكيفية نهاية العالم حيث يتعدّد الأمر الصلابة، وتعصف بالعالم ثورة من التلاشي (الهباء)، وما هذا التلاشي سوى أحد إمكانيات نهاية العالم المحتملة، فهناك هيئة أو إمكانية أخرى ينتهي عليها "يظهر كأنه "تبخر" (تصعيد)، فالانسحاق مهما كان تاما افتراضا يترك دوماً بقايا، ونهاية الدورة تماماً لا يكون إلا بزوال كافة البقايا (غينون، 2013، ص184-186)، بمعنى إنها نهاية حقيقية وفعالية للعالم لا وراء فيها.

ب- تقارب الزمن (Convergence temporelle):

قلنا من قبل أن نهاية العالم تكون زمنية ومكانية، فعند اقتراب نهاية الدورة يمر سريعا الزمان، ويتناقص المكان وهو أمر طبيعي جدا وليس بالجديد أو المدهش باعتباره قانون حتمي في نظرية الدورات الزمنية، هذه الأخيرة التي تتناقص على إيقاع منتظم - كما سبق وأشرنا-، وهناك علاقة بين الزمان والمكان لأن "الزمان لا يقلص المكان فقط بل هو نفسه يتقلص تدريجيا، وهذا التقلص يظهر في النسب المتناقصة للمراحل الأربعة... ومع كل ما يستلزمه ذلك التناقص من تبعات بما فيها ما يناسبه من نقصان في مدة حياة الإنسان" (غينون، 2013، ص177). إن التصور الاختزالي للزمن الذي يعتقد بتناقضه شيئا فشيئا يقترب مما تقرّه أغلبية العقائد الدينية، ويبدو أن غينون قد استفاد من هذا التصور مع قليل من

التشذيب والتهديب، ولا غرابة في القول بتقلص الزمن فهي ظاهرة قد أدرجت في النسق العلمي والفيزياء المعاصرة، حيث تسعى هذه الأخيرة لتعميق البحث في هذه الظاهرة، بل انه يتم اللجوء في بعض الأحيان للمقاربات الميتافيزيقية لحل المشكلات المستعصية.

لقد اعتقد غينون أن "الزمان ليس وعاء فارغا وأنه لا يوجد فيه إلا ما يجري فيه، كانت كل حقبة توصف بالإحداث التي تجليها... إذ تبتعد عن منشئها بسرعة متزايدة باطراد" (بنوا، 1998، ص73)، يستدل وهو الرياضي المحنك برمزية الإنجيل حين تتحدث عن أسرار الساعة فيقول: "ففي رمزية الإنجيل يظهر قابيل قبل كل شيء كمزارع وهابيل كراع، فهما بهذا نموذجان لصنفي لشعوب التي وجدت منذ بدايات البشرية الراهنة أو على الأقل منذ أن حصل أول تمييز فالحضريون المقيمون يتعاطون فلاحه الأرض والرحل تربية الأنعام" (غينون، 2013، ص160). إن القول بأن قابيل يمثل الشعوب الحضرية والتي تشتغل على الفلاحة، و هابيل رمز للشعوب البدو والتي تمتن تربية الأنعام له علاقة وطيدة مع البحث في الزمان وحتى نهاية العالم، فالشعوب الأولى ترمز للمكان والشعوب الثانية للزمان وكل عليه تأدية وظيفته المنوطة به في حدود مكانه أو زمانه، لكن مع "تطور الدورة الزمنية الزمان يستهلك المكان والحضريون يمتصون الرحل ويزداد تصلب العالم وبالاقتراب من نهاية الدورة ينتهي قابيل من قتل هابيل" (غينون، 2013، ص160). وبالتالي تحدث الغلبة التاريخية للمشروعة لطائفة مكانية لطائفة زمانية، تسعى دوماً إلى الخلود التاريخي مقابل اللاهتمام المادي. وقد يبدو هنا وجود تناقض، كيف أن الزمان يستهلك المكان من جهة، ومن جهة أخرى الحضريون(المكان) يمتصون الرحل(الزمان)، فكيف يمكن حدوث غزو مزدوج الاتجاه -إن صح التعبير-؟ يجيب غينون "ففي الوقت الذي يبدو فيه أن الزمان قد انتهى من التهامه للمكان يحدث العكس وهو التهام لمكان للزمان، وهنا بالتحديد وبالعودة إلى المعنى الكوسمولوجي (cosmologie) لرمزية الإنجيل يمكن القول أن هابيل يأخذ ثأره من قابيل" (غينون، 2013، ص178). وربما يمكن تأويل هذه الرمزية بصيغة دينية أخرى فالانتقام الحاصل يعني أن يأخذ كل ذي حق حقه قبل النهاية، وتُعلى راية الحق مجدداً، وعلى العموم فنهاية الدورة لها تأثيراً بالتساوي على الزمان والمكان معا وحتى على المعرفة حيث يمتدّ "كسوف الإيمان وانتشار العلمانية وافتقاد البصيرة الفكرية ونسيان العلوم المقدسة" (نصر، 2017، ص217). وهنا تحدث عملية الانتقال من المستوى المعنوي الميتافيزيقي اللاهوتي (théologie) لصالح المستوى المادي الأنوجادي

ج- ظهور الروحانية الزائفة وتجربها:

لقد أكدت جُلُّ العقائد الدينية على أنّ آخر الزمان ينتشر الشر بكل صوره وأشكاله وتظهر البدع والخرافات والضلالات بأشكال عديدة، ورأى غينون من جهته انتشار الاتجاهات المحرمة والروحانية المغلوطة، وهناك طويرين من العمل المضاد للتراث الروحي الأول "يمثل ببساطة عمل انحراف وغايته المقصودة هي المادية في شكلها الأتم والأشدّ

غلظة، وأما الطور الثاني فيمكن تمييزه بالخصوص كعمل قلب وانتكاس وينبغي أن يؤول إلى تشكيل ما سميناه بروحانية معكوسة" (غينون، 2013، ص223) والروحانية المعكوسة تمثلها عدة اتجاهات مثل الاخفائية، الثيوصوفيا (théosophie)، وفي وصف غينون لهذه الأخيرة يقول: "يمكن أن نكتفي بالضحك منها لأنها مخصصة لتفرض على السذج" (Guenon, 2015, p. 100)، تعبيراً منه عن حمق ما تدعو إليه، وعدم قيامها على مبادئ تراثية مؤسسة، وهي إيدانا بمرض العالم وعتمة روحانيته قبل موته المحقق والأكيد والذي لا مرأى فيه

4- نهاية العالم بين التفاؤل والتشاؤم (La fin du monde entre optimisme et pessimisme)

يمكن أن نتحسس وجود تفاؤل من عدمه في نهاية العالم من خلال السؤال التالي: هل نهاية العالم هي الزوال التام والنهائي لكل شيء؟ يجيبنا غينون بقوله: "نهاية عالم ليست أبداً ولا يمكن أن تكون سوى نهاية وهم" (غينون، 2013، ص291)، فإذا أدركنا أن الانتقال من دورة ستكون سابقة إلى دورة أخرى لاحقة هو انتقال من آخر دورة إلى بداية دورة جديدة، استبان لنا عدم وجود مبرر للإفراط في التشاؤم، وقد وجد غينون في نظرية الدورات وصفا عميقا لكيفية التحول من زمن الانحطاط والأزمات والظلام إلى زمن جديد وبداية جديدة.

صحيح أنّ نهاية العالم ظاهرها سوداوي ولكنها مع ذلك تستبطن جوانباً الفرح، لأنّ التقدم حسب غينون يقع في الماضي (بداية الدورة) —إذا قصرنا نظرنا على دورة زمنية واحدة فقط— مانفتتاراً، أي أنّ التقدم وقع وانتهى حيث لا وجود له في وسط أو آخر هذه المانفتتاراً، لكن إذا نظرنا إلى العديد من الدورات مع بعضها (كالبا) حينها يصبح التقدم واقع في الماضي أو في بداية الدورات التي مرت وسيكون أيضاً في بداية كل دورة لاحقة (المستقبل)، لأن نهاية دورة هي بداية دورة جديدة يعني بداية عصر ذهبي جديد، لقد عبر غينون عن هذه الرؤية الممزوجة بين التفاؤل والتشاؤم بقوله: "من عادة أنصار التقدم قولهم أنّ العهد الذهبي لم يقع في الماضي وإنما سيحدث في المستقبل، لكن الحقيقة بالعكس بالنسبة لحقبة المانفتتاراً الراهنة أي العهد الذهبي وقع في الماضي، إذ لم يكن سوى الوضع الفطري الأصلي الأول نفسه لكن من حيثية أخرى هو في الماضي وفي المستقبل في نفس الوقت، بشرط عدم الانحصار في المانفتتاراً الراهنة واعتبار تتابع الدورات الزمنية الأرضية. إذ أنّ العهد الذهبي الذي سيقع في المستقبل سيكون بالضرورة في بداية المانفتتاراً القادمة" (غينون، 2013، ص288)، ولقد عبّر إدغار موران عن التوقعات حول المستقبل هو الآخر وفق رؤية مزدوجة داعياً إلى ما يلي: "ينبغي علينا أن نكون مستعدين للتشاؤم والتفاؤل فمن جهة يمكن لنهاية الإنسانية أن تكون وشيكة، ومن جهة أخرى أصبحت ولادة جديدة للإنسانية أمراً ممكناً" (موران، 2009، ص68). فمن الأمر الهين والممكن أن نترك مساحة تفتح على احتمالات ذات حدين من أن نحازف بخيار واحد لا مجال فيه للتراجعات والمراجعات والتصحيحات.

حيث حاول غينون إظهار قصور آراء البعض وهذا الخوف الذي يعتريهم من التفكير في "نهاية العالم" وذلك ناجم عن فقدان أية صلة بالمتعالي وانطفاء الوعي الديني في الوجدان، واعتقاد الإنسان أنه مجرد ريشة في مهبّ الريح تحت رحمة واقع أليم فلا يسعى بذلك لتوجيه مجرى الأحداث للتخفيف من حدتها، إنه ينبغي -حسب غينون- الإيمان أن نهاية الدورة "لا تظهر كنهاية للعام بلا تقييد ولا تخصيص من أي نوع إلا بالنسبة للذين لا يرون شيئاً وراء حدود هذه الدورة نفسها، وهذا خطأ في النظر قد يُغتفر لكن لا أقلّ من تسببه في تبعات وخيمة بفعل الرعب المفرط وغير المبرر الذي يولده عند الذين لم ينفصلوا بما فيه الكفاية عن الحياة الدنيوية" (غينون، 2013، ص288).

لقد أتاحت وفرة الملاحظات لغينون والمقارنة بين مختلف الأزمنة الماضية والحديثة أن يستخلص ملاحظة مبدئية تتعلق بالأحداث التي تبدو شاذة وتندر بكارثة كونية مؤكداً أنه: "قد حصلت في الماضي أحداث من هذا النوع وسيحصل مثلها من دون شك في المستقبل" (غينون، 2017، ص13)، أما عن قيمة هذه الملاحظة فهي تنطوي على دعوة للعودة إلى النظرية التراثية حول الزمن ونهاية العالم، التي تراعي الضعف البشري وتعطي موجز شامل لكل المراحل التي تمر بها البشرية على سطح الأرض كضمانة لتوالي الأفراح مهما حصل من سيطرة للبؤس والشقاء والحروب والمجاعات والأوصاب.

أن نعرف ونفهم صيرورة العالم وفق التصور الديني يعني أن نحظى بقسط داخلي من السكينة والطمأنينة، حتى وإن بدا هذا التفكير طوباوياً، خاصة في ظل تنامي الرؤى المساوية حول نهاية العالم، والعودة إلى بث المقدس في ثنايا الزمن المحض دنيوي مع مد العلمانية، "لأن الزمن وقد جردّ نهائياً من القداسة يمثل كقدرة عرضية ومتلاش يقود نهائياً إلى الموت" (إلياد، 1988، ص86). هكذا يمنح التصور الروحي تفاؤلاً ومواساة للهرب من فكي الفناء والعدم.

حينها فبالوصول إلى العصر الرابع كالي يوغا" أو العصر المظلم تكون البشرية قد وقعت في عديد الأزمات التي تدلّ على نهاية العالم، باعتبارها فاصل بين دورتين: دورة سابقة تنتهي بالابتعاد عن المبادئ والقوانين الإلهية فتكثر إخفاقاتها وتصبح هشة أمام كل عوامل الفناء، ودورة جديدة لاحقت تبشّر بقيام بشرية جديدة أقرب إلى المبادئ وبالتالي تبعث الأزمة بحالة من التوتر ونهاية للعالم تكلل بولادة جديدة للعالم، ألم يطمئن غينون الغرب حين كتب: "أما النهاية نفسها لهذه الدورة فهي تفرض حدوث التقويم الذي تتحول بواسطته هذه التوجهات البشرية إلى محصلة خيرية نهائية" (غينون، 2013، ص275). وبذلك يكون الانتقال من دورة لأخرى، ويحدث تحوّل جذري من السالب إلى الموجب، ومن الأسوأ إلى الأحسن، ومن الأسفل إلى الأعلى، بل الأكثر من هذا أنّ العناصر الإيجابية يمكن لها أن تنتقل إلى الدّورة الموالية فتكون بمثابة بذور، "فبينما النتائج الإيجابية للجلى الظهور الدوري تتبلور ثم بعد ذلك تستحيل إلى بذور لقدرات الدورة التالية وهو ما يشكل مآل التصلب في مظهر السعادة والخير...وأما ما لا يمكن أن يكون كذلك أي

إجمالاً كل ما يشكل إلا نتائج سالبة لنفس هذا الجلي من الظهور فإنه يهوي على شكل جمجمة ميتة (غينون، 2013، ص186). فالعملية ذات مسارين، مسار صاعد نحو الأعلى لكل ما يمثل مظهر خيري، والآخر نازل نحو الأسفل يهوي بكل ما يمثل جانب الشر "ففي جانب السعادة والخير يكون التجوهر والتّصعيد، وفي جانب الشر يكون السقوط والرجوع النهائي إلى الإلهاام العمائي" (غينون، 2013، ص186)، ولا يمكن في أي حال من الأحوال التخلي عن ثنائية الخير والشرّ، الموجب والسالب، النور والظلام، الروحانية والمادية، العلم المقدّس والعلم المدّنس، باعتبارها تمثل تضاداً يؤدي وظيفته في المسار الكوني الشمولي للدورات الزمنية.

وقد استمر غينون يدعو إلى القيام بعمل تصحيحي لمسار الحضارة الحديثة رغم كثرة دواعي اليأس والإحباط قائلاً "حتى لو لم يبق أي أمل لبلوغ نتيجة محسوسة قبل فناء العالم الحديث بفعل كارثة ما فليس هذا سبباً مقبولاً لعدم القيام بعمل تمتد آثاره إلى ما بعد الحقبة الراهنة" (غينون، 2017، ص228). لأن إيمانه بخلود المبادئ والخير وانتقاله عبر الأزمان كان أقوى من أي تهديد يائس باعتبار أنّ "الفوضى والباطل والظلام لا يمكن أن تكون لهم الغلبة إلا ظاهرياً وخلال فترة مؤقتة ومحدودة جداً وأن جميع الاختلالات الجزئية والعارضة تساهم في التوازن الكلي العظيم" (غينون، 2017، ص228)، ولعلّ الأمر هنا شبيه بالصورة التي تقدمها بعض الديانات عن وجود مبدئين يحكمان العالم هما النور والظلام، صحيح أن النور يبدو الأفضل بل المبدأ الخير إلا أنّ للظلام أو الشرّ أيضاً أهميته في المحافظة على التوازن الكلي، فلا يعقل أن تصبح اللجنة أرضية دون تطلعات إلى السماء مهما وصلت الحضارة من تقدم ومادية، إذ هناك دوماً هامش للخطأ في الحياة المعهودة.

5- مقارنة الرؤية الغينونية لـ "نهاية العالم" مع فكرة "نهاية التاريخ" لدى فرانسيس فوكو ياما

يدفعنا الحديث جلياً هنا إلى ضرورة ملحة مفادها تبيان الرؤية نحو العالم ونهايته كما تصورها روني غينون، متسائلين في ذات السياق عن مدى إمكانية تقارب الفكرة القائلة بنهاية العالم لدى غينون، ونهاية التاريخ لدى فرانسيس فوكو ياما (Fukuyama)، فمن خلال ما سبق تحليله حول فكرة "نهاية العالم" عند روني غينون، هل يمكن اعتبار ما ذهب إليه هذا الأخير هو نفسه فكرة موازية لـ: "نهاية العالم" لدى فوكو ياما؟.

يجيبنا فرانسيس فوكو ياما من خلال رؤيته الدقيقة والواضحة لسؤال "نهاية التاريخ" حيث عبر عن ذلك قائلاً: "إن نهاية التاريخ تعني نهاية الحروب والثورات الدموية، ومتى اتفق الناس على الغايات، فلن تكون هناك قضايا كبيرة يتقاتلون بسببها، سيصبحون احتياجاتهم بفضل النشاط الاقتصادي غير أنهم لن يضطروا إلى المخاطرة بحياتهم في معارك وبعبارة أخرى سيصبحون حيوانات من جديد، كما كانوا قبل المعركة الدامية، التي بدأ بها التاريخ إن الكلب ليقنع بالنوم في ضوء الشمس شرط أن يطعموه، وذلك لأنه راضٍ بما هو عليه" (فوكوياما، 1993، ص270) ومعنى هذا أن التاريخ ذاته هو

حامل لسمات الحرب والدم والإرهاب والدمار والاقتتال، أما عن نهايته فهي نهاية كل هذه الصفات، بينما يرى روني غينون عكس هذه النظرة حيث تعتبر عنده "نهاية العالم" هي انتهاء تلك الدورة الزمنية الكبرى، حيث لا يبقى للبشرية الراهنة أثراً، وهي نهاية زمانية ومكانية على حد سواء. كما يذهب فرانسيس فوكو ياما لفكرة مفادها أن نهاية التاريخ هي انتصار الرأسمالية ذاتها، فنهاية التاريخ لديه هي القضاء على الشيوعية (الحمداوي، 2013، ص 479). فلا انتهاء للتاريخ من المنظور اللبرالي وكذا فرض الصراع بالمنطق الديمقراطي والهيمنة العالمية، والقضاء على الصراع الطبقي، والقوى الزائفة التي تنزوا إلى تجزئة العالم وتفككه، بل يدافع "فوكو ياما" على مقولته في محاولته لبناء مجتمع متماسك كوكبي وعالمي، يسوده الأمن والاستقرار الوحدة ومن ثم إبعاد القوى الدينية وكذا الديكتاتورية العسكرية، وبالتالي يعتبر النظام الديمقراطي اللبرالي بمثابة "المثل الأعلى" بالنسبة لـ: "فوكو ياما"، وهنا يختلف هذا الأخير عن الرؤية التي قدمها روني غينون حول "نهاية العالم" والتي تقضي بضرورة العودة للنظم والشرائع الدينية، التي تقر بمبدأي "الجنة والنار" كنهاية زمانية ومكانية على حد سواء، ومن ثمة يصبوا فوكو ياما للدفاع على رؤية متماثلة بمبدأين لا ثالث لهما الأول: "تحكمه العلوم الطبيعية الحديثة ومنطق الرغبة، والثاني: يحكمه الصراع من أجل فرض الاعتراف، وقد كانت نهاية المسارين واحدة لحسن الحظ، ألا وهي نهاية الديمقراطية واللبرالية الرأسمالية" (فوكوياما، 1993، ص 252). وبالتالي هي انتصار "ثيموسي رغبوي"، تفرضها قوى فرض الاعتراف وهي فكرة ظهرت لدى أفلاطون وهيكل ونيشيه، فالحياة الإنسانية قائمة على أساس ضرورة الاعتراف بقوى لصالح قوة مركزية واحدة، وهذه الرؤية التي انتقدها إدغار موران، حينما ضيقت كل الآفاق والتصورات إزاء العالم، في بنية مادية راغبة اقتصادية واحدة وهمشت الحاضر الحي (Présent-vivant)،

وقد أعلن "الكسندر كوجيف" (Alexandre coghiffe) في القرن العشرين، وهو أحد أكبر شُرَّاح "هيجل" على أن التاريخ قد انتهى، تحديداً بعد حلول مكان فكرة الاعتراف، فكرة ثنائية "السيد والعبد" التي انتهت إلى مسألة المساواة. وتحقيق مبدأ العدالة، وقد رأى فوكوياما أن ازدهار الديمقراطية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأفول أشكال الأنظمة الديكتاتورية والتسلطية، وهي الحقبة التي يتم من خلال الإعلان الصارخ لنهاية التاريخ، ومن ثم يحل الرجل الديمقراطي اللبرالي كمرحلة أخيرة من مراحل التطور البشري والإيديولوجي، والصورة المثلى لحكم بشري، "فالديمقراطية اللبرالية هي أفضل شكل من أشكال الحكومة كما أنها أفضل نسق سياسي اجتماعي يمكن أن يساعد على ترسيخ الحرية" (فوكوياما، 1993، ص 263). وهي رؤية مخالفة تماماً لما ذهب إليه "روني غينون" الذي أعلن انتصار الشرائع الدينية المتمثلة في كل ما تقره "اليهودية، المسيحية، والإسلام". فسيبل انبعاث حضارتنا الجديدة يكون على شكل تطوير للعقائد الدينية والعلاقات الاجتماعية" (تومبي، د ت)، ص 92. حيث يؤيد "فوكو ياما" النظرة القائلة بوحدة الثنائية بين "السيد

والعبد" مقابل أن يعترف بوجود إنسان واحد ووحيد منتصر ألا وهو "الرَّجل الرأسمالي"، لا "الرَّجل الدِّيني". ومن ثم تباينت اختلافات التاريخية Historicité.

وما يخالف الرؤية الليبرالية هو النداء بمشروعية ما يقره النص الديني، من ثنائية "الجنة والنَّار"، بينما نرى الرؤية التي يتبناها "فرانسيس فوكو ياما" تقتصر على الرؤية الضيقة الأفق والمتمثلة في الحديث عن الطبقة الأرستقراطية، " (Pascal, p. 47) والتركيز على الشعوب المتقدمة. كما ان أفكار نهاية التاريخ اقترنت بحديثه عن الكليانية أو تاريخ كوني بشري شمولي، وهو توجه رافض للاختلاف والمغاير، بل ترغب في نمطية الكون، وتوحيد المشرب الحضاري في شتى مجالات الحياة البشرية، بل هي رؤية ترى في التاريخ الأوروبي تاريخاً مركزياً جوهرياً وجب الامتثال لأوامره، وإلا سيكون مصير من يخالفه هو العيش في أرذل مراتب التاريخ، بل المكوث في هامش التاريخ ذاته، فهي فكرة غائية محايدة (Téléologie immanente) وفي ذات السياق فإن روني غينون قد رأى في الأنظمة الليبرالية والرأسمالية أنظمة تحمل شعارات تناقض ذاتها فقط، ولا تفر بالمعنى اليقيني للفكرة الإنسانية والكونية التي تجعلها تعمر طويلاً في تاريخ البشرية. ومن ثم يمكن القول بأن فكرة "نهاية التاريخ" عند "فرانسيس فوكو ياما" وفكرة "نهاية العالم" لدى "روني غينون" هما فكرتين متباينتين متباينتين من حيث الأسس والغايات والمرامي لكل منهما، وما نتوصل إليه بعد تحليل الفكرتين معاً أن روني غينون رؤيته تلغي الحروب والصراعات والتشققات التي باتت تهدد العالم وستظل لأن المحدد في ذلك هو الرغبة في التسلط الذي يهدد البشرية جمعاء مقابل الرؤية التي يقدمها "فوكو ياما" التي ترنو إلى انتصار الليبرالية كبراديجم (paradigme) واحد ومتفرد، يمارس سياسة الإقصاء والتهميش والإبعاد والتفني، حيث تختزل نموذجها الواحد في أيقونة محكومة بالنمط الأمريكي، حيث تُسيطر على النظام العالمي الجديد بعد تفردا بقيادة السياسة العالمية منذ 1990م بعد انهيار المعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفييتي سابقاً (روسيا حالياً) . والتي فرضت نفسها من خلال سياسة التثشير والإعلام واحتكارها للسوق العالمية، وقيادتها لمنظومة الإيديولوجية الجديدة.

كما نجد أيضاً وكنقطة اختلاف متباينة بين الفيلسوفين بأن "فوكو ياما" قد استعمل كلمة "تاريخ" بالمعنى الهيجلي والمعنى الماركسي، الذي يرنو إلى تأكيد فكرة التطور التاريخي الحاصل على مستوى المؤسسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وبالتالي "نهاية التاريخ" لا تعني نهاية أحداث العالم، بل تعني نهاية الأيديولوجيات لصالح الإيديولوجية الأمريكية. بينما استعمل "روني غينون" فكرة "نهاية العالم" بالمعنى التيولوجي (théologie) والذي يتحدد من خلاله العالم ومصير البشرية الذي يؤول إلى نهاية محتومة لا فكاك منها، وبالتالي كل حضارة تجعل من "الشَّيْئَة" سنداً لها سيكون مصيرها الزوال ولو بعد حين، في ظل إلغائها لكل نموذج ميتافيزيقي.

خاتمة

على ضوء ما سبق يمكننا استنتاج أن نهاية العالم التي تحدث عنها غينون ترنوا إلى ما يلي:

أولاً: وقوع العالم المعاصر في أزمات ينبغي الالتفات إليها جدياً باعتبارها تقود البشرية نحو الهاوية إن استمرت في سرعتها المفرطة .

ثانياً: العودة للتراث باعتباره نبعاً لا ينضب، في الإمكان أن تستمد منه الإنسانية الحالية طاقة إيجابية دافعة على الأمل وهي تخوض غمار الأزمات الآتية وترنو بنظرة إستشرافية نحو المستقبل من جهة أولى، ومن جهة أخرى محاولة لتحذير العالم المعاصر من الانسياق وراء دعاوي التقدم وما يتبعها من اهتمام بالجانب المادي على حساب الجانب الروحي مما يفرغ العالم من أي إمكانية للشعور بالحياة الحقة حالياً ومستقبلاً فهي دعوة لعودة الروح والإيمان بأن الأحسن قادم.

ثالثاً: قياس التقدم والرقى لا يكون بالنظر إلى المعيار المادي فقط، وإنما بالمعيار الروحي أيضاً باعتباره لا يحقق التوازن والانسجام الكوني المنشود، لذلك فحضارة تتكئ على المادة فقط مصيرها الحتمي الزوال السريع، فلا بد من وضع حد للتطور المادي المحض.

رابعاً: للحتمية تركز كبير في "الرؤية الغينونية" للعالم لكن هذا لا ينفي وجود حيّز للجهد الإنساني والفعل الهادف المحمل بالمقاصد الحرة، باعتبار أن الوضع الكارثي الذي تعيشه البشرية يمكن التخفيف من قاتمته عن طريق محاولة الاتصال مرة أخرى بالمبادئ الحقة لتحقيق قدر من الإصلاح يخفف من حدة الانهيار ووطأته الشديدة.

أخيراً: إن هذا التأويل الذي قدمه غينون لنهاية العالم يلبس لباس الميتافيزيقا، فنظرية الدورات الكونية، والرؤية الكلية، والروحانية المطموسة ومحاولة التنبيه لأهميتها، إن هي إلا موضوعات تقع في صميم البحث الميتافيزيقي، هكذا يتحول العالم في فلسفة روني غينون إلى أفق للبحث عن حلول ممكنة وكتيئة للأزمات العالمية.

وخلاصة التركيب هذه توسّلاً بالعقلانية المنفتحة، تواجه مغاليق العقل المختزل التي تحتزل الإنسان في الإنسان

الحكيم، وفي الإنسان الصانع وفي الإنسان الاقتصادي، إمعاناً منها ، أنّ الكائن البشري فيه الحكيم وفيه الشيطاني وفيه الصانع وفيه الخرافي وفيه الاقتصادي وفيه الثري والشعري وفيه الطبيعي. أي أن الإنسان كائن معقد.

قائمة المراجع:

أولا: باللغة العربية

1. إدغار موران، (2009)، إلى أين يسير العالم، ترجمة، أحمد العلمي، ط1. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
2. أرنولد تومبي، (د ت)، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة، فؤاد محمد شبل. ط1، القاهرة: منشورات الأهرام.
3. الأناجيل، (2008)، ترجمة، سهيل زكار، ط1. دمشق: دار قتيبة.
4. الكتاب المقدس العهد الجديد: إنجيل يوحنا، (1993)، ط4. بيروت: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.
5. الكتاب المقدس العهد الجديد: سفر التكوين، (1995)، ط2. لبنان: دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.
6. الكتاب الهندي المقدس: الباجافادجيتا، (1993)، ترجمة، عبد الجليل جواد، ط1. اللاذقية: دار الحوار.
7. إلياس بلكا، (2008)، الغيب والعقل دراسة في حدود المعرفة البشرية، ط1. فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
8. أندريه لالاند، (2001)، موسوعة لالاند الفلسفية، ج2، ترجمة، خليل أحمد خليل، ط2. بيروت: منشورات عويدات.
9. إيمانويل كانط، (2001)، الدين في حدود مجرد العقل، ترجمة، فتحي المسكيني، ط1. بيروت: جداول للنشر والتوزيع.
10. حسن الباش، (1988)، الميثولوجيا الكنعانية والإغصاف التوراتي، ط1. دمشق: دار الجليل للطباعة والنشر والتوزيع.
11. روني غينون، (2017)، أزمة العالم الحديث، ترجمة، عبد الباقي مفتاح، ط1. إربد: عالم الكتب الحديث.
12. روني غينون، (2018)، الميتافيزيقا الشرقية، ترجمة، عبد الباقي مفتاح، ط1. إربد: عالم الكتب الحديث.
13. روني غينون، (2014)، رموز العلم المقدس. ترجمة، عبد الباقي مفتاح، ط1. إربد: عالم الكتب الحديث.
14. روني غينون، (2016)، شرق غرب. ترجمة، عبد الباقي مفتاح، ط1. إربد: عالم الكتب الحديث.
15. روني غينون، (2013)، هيمنة الكم وعلامات آخر الزمان. ترجمة، عبد الباقي مفتاح، ط1. إربد: عالم الكتب الحديث.
16. سيد حسين نصر، (2017)، الحاجة إلى علم مقدس، ترجمة، حمادة أحمد علي، عمر نورالدين، ط1. القاهرة: نيويورك للنشر والتوزيع.
17. صدر الدين الشيرازي (د ت)، أسرار الآيات، تحقيق، محمد موسوي، د ط، طهران: مؤسسة حكمة.
18. علي عبود الحمدادي وآخرون، (2013)، فلسفة التاريخ جدل البداية والنهاية والعود الدائم. ط1. الجزائر: ابن النسيم.
19. فرانسيس فوكوياما، (1993)، نهاية العالم وخاتم البشر، ترجمة، حسين أحمد أمين، ط1. القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر.
20. لوك بنوا، (1998)، المذهب الباطني في ديانات العالم، ترجمة، نهاد خياطة، ط1. بيروت: مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
21. محمد حسين الطبطبائي، (2007)، الإنسان والعقيد، تحقيق، صباح الربيعي، علي الأسدي، ط1. قم: مكتبة فذك لإحياء التراث.
22. ميرسيا إلياد، (2007)، البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، ترجمة، سعود المولى، ط1. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
23. ميرسيا إلياد، (1988)، المقدس والمدنس. ترجمة، عبد الهادي عباس، ط1. دمشق: دار دمشق.

ثانياً: باللغة الفرنسية

1. Guenon, R, (1958), *Introduction Générale à l'étude hindoues*, Paris: Kariboo.
2. Guenon, R, (2015), *La théosophisme histoire d'une pseudo-religion*, Paris édition Kariboo.
3. Morin, E. (2011), *LA Voie*, Librairie art hème fayard.
4. Pascal, J, *Non monsieur fukuyama, L'histoire n'est pas fini*. Paris: édition Bob-books on demande.

1- روني غينون، René Guénon (1887-1951): فيلسوف ومفكر فرنسي، انصبَّ اهتمامه على دراسة الميتافيزيقا والعلوم التراثية أو المقدسة كما يسميها، بعد أن فرغ من دراسته ونقده للحضارة الغربية وعقائدها والأسس التي تقوم عليها، أسلم سنة 1912، وتكثَّى باسم عبد الواحد يجي، قضى غينون سنة 1917 بالجزائر مدرساً للفلسفة، وبدءاً من 1931 سافر إلى القاهرة وأكمل حياته فيها متفرغاً للتأليف إلى أن وافته المنية، من أبرز مؤلفاته: أزمة العالم الحديث، شرق غرب، الميتافيزيقا الشرقية، رموز العم القدسي.